

# الباب الثاني والعشرون

## تمدين الغرب

### الفصل الأول

#### رومة والولايات

كانت الروصمة التي يوصم بها رخاء إيطاليا - إذا غضضنا النظر عن نظام الاسترقاق الذي كان نظاماً عاماً في الدول القديمة - هي اعتمادها إلى حد ما على استغلال الولايات . لقد كانت إيطاليا معفاة من الضرائب لأن الولايات كانت تؤدي لها الشيء الكثير نهياً أو خراجاً ، ومن ذينكما النهب والخراج كان أصل الثروة التي نشأ عنها ازدهار المدن الإيطالية . وكانت رومة قبل عهد قيصر تعدّ الولايات أقاليم تمتلكها بحق الفتح ، وتعتمد سكانها جميعاً رعياً رومانيين ، ولم يكن منهم إلا عدد قليل يعدون ضمن المواطنين الرومان ؛ وكانت أرض تلك البلاد بأجمعها ملكاً للدولة الرومانية ، يمتلكها أصحابها على أنها منحة لهم من قبيل الحكومة الإمبراطورية ومن حقها أن تستردها منهم . وأرادت رومة أن تقلل من احتمال قيام الثورات الأقاليم المفتوحة فقسمتها ولايات صغيرة وحرّمت على كل ولاية أن يكون بينها وبين غيرها من الولايات معاملات سياسية مباشرة ، وكانت تفضل رجال الأعمال على الطبقات الدنيا في جميع الولايات . وكان سر الحكيم الروماني وشعاره

هو فرق تسد *Divide et impera* .

ولعل شيشرون كان يببالغ حين قال عن أمم البحر الأبيض المتوسط ، في

سياق تشهيره بقريس Verres ، إن بلادها كانت مقفرة في عهد الجمهورية :  
« إن كل الولايات تندب حظها ، وجميع الأحرار يضرخون ويغولون ،  
وجميع الممالك تحتج على قسوتنا وشرها ، وليس ثمة مكان فيما بين المحيطين ،  
مهما يكن قاصياً أو خافياً ، لم يشعر بوطأة جشعنا وظلمنا » (١) . أما الزعامة  
فكانت أكثر سخاء من الجمهورية في معاملتها للولايات ، ولم يكن هذا  
كرماً منها بل كان حسن التدبير . فقد كانت الضرائب في أيامها غير  
باهظة ، وكانت تحترم الأديان واللغات والعادات المحلية ، وكانت حرية  
الكلام مباحة إلا إذا كانت طعناً في السلطة العليا ، وسمحت لها أن تحتفظ  
بقوانينها المحلية ما دامت هذه القوانين لا تتعارض مع مكاسب الرومان  
وساداتهم . وقد اتبعت خطة مرنة حكيمة أمكنها بها تقسيم الولايات الخاضعة  
لسلطانها أقساماً متفاوتة في المرتبة ، وتقسيم الأهلين في داخل كل ولاية  
طبقات متفاوتة القدر كذلك . فقد كانت بعض البلديات كأثينة ورودرس  
« مدنا حرة » ، تعطى جزية ، ولا تخضع لحاكم الولاية ، وتدبر شئونها  
الداخلية بنفسها من غير أن تتدخل فيها رومة ما دامت تحتفظ بالنظام  
الاجتماعي والسلم . وقد سمحت رومة لبعض الممالك القديمة أمثال نوميديا  
وكيودوكيا أن تحتفظ بملوكها ، ولكن هؤلاء الملوك كانوا « أقبالا » لرومة  
يعتمدون على حمايتها وسياستها ، وكان يطلب إليهم أن يمدوها بالمال والعتاد  
إذا أرادت ذلك . وكان حاكم الولاية يجمع في شخصه السلطة التشريعية  
والتنفيذية ، والقضائية ، ولم يكن يحد من سلطانه إلا المدن الحرة ، وحق  
المواطن الروماني في أن يلجأ إلى الإمبراطور ، وللرقابة المالية التي كان يقوم  
بها الكوستر أو الرقيب .

غير أن هذا السلطان المطلق كان يغرى الحكام بأن يسيثوا استخدام  
سلطتهم ، ومع أن المدة التي كان يتولى فيها الحاكم منصبه قد طالت في عهد  
الزعامة ، ومع أن مرتبه ومخصصاته الأخرى قد زيدت زيادة كبيرة ، ومع أن  
مستوليته عن أعماله المالية أمام الإمبراطورية قد قلت من فساد الحكم وسوء

استعمال السلطة ، فإن في وسعنا أن نستدل من رسائل بلني ومن فقرات كتاب تاستس ، على أن ابتزاز المال والفساد لم يصبحا من الأمور النادرة في آخر القرن الأول .

وكانت جباية الضرائب أهم أعمال الحكام وأعوانه . وكانت الدولة في عهد الإمبراطورية تقوم بإحصاء عام في كل الولايات ، ويقصد به فرض الضرائب على الأرض وعلى الأملاك - ومنها الحيوانات والعييد . وأرادت الدولة أن تشجع زيادة الإنتاج فاستبدلت بالعشور خراجاً محدد القيمة ، ولم يعد الملتزمون هم الذين يجبون الضرائب ، وإن ظلوا يجبون بعض العوائد الجمركية في الثغور ، ويشرفون على الأعمال الجارية في غابات الدولة . ومناجها وعلى الأشغال العامة فيها . وكان ينتظر من الولايات أن تسهم عمل تاج من الذهب لكل إمبراطور جديد ، وأن تقوم بتكاليف إدارة الولاية ، وأن ترسل في بعض الحالات سفناً محملة بالغلل إلى رومة . واحتفظ في الشرق بالعادة القديمة ، عادة أداء الأفراد خدمات عامة للدولة ، ثم انتشرت فيما بعد من الشرق إلى الغرب . وكان للحكومة المحلية أو للوالى بمقتضى هذه العادة أن « يطلب » إلى الأغنياء أن يقدموا قروضاً للحرب ، وسفنًا للأسطول ، ومباني للأغراض العامة ، وطعاماً لضحايا القحط ، ومغنين في الأعياد والمسرحيات .

ويقول شيشرون ، وهو ممن تولوا بعض المناصب العامة في الدولة ، إن الضرائب التي كانت تؤديها الولايات لا تكاد تكفي نفقات الإدارة والدفاع (٣) . وكان « الدفاع » عندهم يشمل القضاء على الفتن والثورات ، وأكبر الظن أن نفقات « الإدارة » كانت تشمل المطالب التي خلقت ذلك العدد الكبير من الرومان أصحاب الملايين . ومن واجبتنا ألا نرى حرجاً في أن ترسل أية سلطة يناط بها حفظ الأمن والنظام في ذلك الوقت جباة يجمعون أكثر مما يكفي لهذين الغرضين . على أن الولايات قد عمها الرخاء في عهد حكومة الزعامة على الرغم من

هذه الأعباء كلها . ذلك بأن الإمبراطور ومجلس الشيوخ قد فرضا رقابة شديدة على الموظفين في الولايات ، وكانا يفرضان أشد أنواع العقاب على كل من يسرق من الأموال أكثر مما تبيحه له منزلته . وكان ما يؤخذ من الولايات أكثر مما يتطلبه الفرضان السابق ذكرهما يرد آخر الأمر إليها ثمناً لبضائعها . وبفضل هذا العون الذي كان يقدم للصناعات أصبحت الولايات أقوى من إيطاليا الطقيلية المزعزة الكيان . وجدير بنا أن نختم هذا الفصل بالعبارة الآتية المنقولة عن أفلوطرخس ، وهي أن نعمتين يجب أن تضمّنهما الدولة للشعب قبل كل شيء : وهما الحرب والسلام ؛ « فأما السلام فلسنا في حاجة إلى أن نشغل أنفسنا به ، لأن الحروب كلها قد وضعت أوزارها . وأما الحرية فإن لنا منها ما تركته لنا الحكومة ( رومة ) ؛ ولعلها لو أبقت لنا أكثر مما فعلت لما كان ذلك من مصلحتنا » (٤) .

## الفصل الثاني

### أفريقية

ضمت كورسكا وسردينيا معاً وتكونت منهما ولاية واحدة ، ليست جزءاً من إيطاليا ؛ وكان الجزء الأكبر من كورسكا أرضاً جبلية مقفرة ، يصيد فيها الرومان الأهلين بالكلاب ليبيعوهم عبيداً<sup>(٥)</sup> . أما سردينيا فكانت تمدهم بالعبيد ، والفضة ، والنحاس ، والحديد ، والحبوب ؛ وكان فيها ألف مبل من الطرق الصالحة ومرفاً جيد ممتاز هو مرفاً كراليس Carales ( كجليارى الحالية ) . وكانت صقلية قد انحطت منزلتها حتى كادت تصبح ولاية زراعية محضمة من الولايات التي تمد رومة الجائعة بالطعام . وكان الجزء الأكبر من أرضها الصالحة للفلاحة قد جعل ضياعاً كبرى لتربية الماشية ، يرعاها عبيد لا ينالون إلا أقل الغذاء والكساء ، وكثيراً ما كانوا يفرون من عملهم لهذا السبب ويؤلفون عصابات للسلب والنهب . وكان سكانها في عهد أغسطس يبلغون ٧٥٠٠٠٠ ر (وقد بلغوا في عام ١٩٣٠ حوالى ١٠٠٠٠٠ ر ٩٧٢ ر ٣) . وكانت أكثر مدنها الخمس والستين ازدهاراً هي قطانيا Catania ، وسرقوسة ، وتورومينيوم Touromenium (تورمينا Taormina الحالية) ، ومسانا ، وأجرجنتم ، وبنورمس Panormus (پلرمو الحالية) . وكان في سرقوسة وتورومينيوم ملهيان يونانيان فحمان ، لا يزالان يستخدمان لهذا الغرض حتى الآن . وكانت سرقوسة ، على الرغم مما أصابها من النهب على يدى قرىس Verres مملوءة بالمياى الرائعة ، والتماثيل الشهيرة ، والمواقع التاريخية بدرجة يسرت العيش للأدلاء المحترفين الذين كانوا يصحبون السياح الكثيرين الوافدين إلى تلك الجزيرة<sup>(٦)</sup> ، وكان شيشرون يحسبها أجمل مدينة في العالم كله . وكان لمعظم الأسر الغنية ضياع أو بساتين في

ضواحيها وكان جميع ريفها تعطره أشجار الفاكهة والكروم كما تعطره في هذه الأيام .

وعاد على أفريقية كل ما فقدته صقلية بسيطرة الرومان عليها ، فقد أخذت تحل شيئاً فشيئاً محل تلك الجزيرة في توريد الحبوب مكرهة إلى رومة ، ولكن الجنود ، والمستعمرين ، ورجال الأعمال ، والمهندسين الرومان جعلوا تلك الولاية جنة وارفة الظلال إلى حد لا يكاد يصدقه العقل . وما من شك في أن الفاتحين الجدد قد وجدوا فيها حين قدموا إليها أصقاعاً خصبة غنية ؛ فقد كان بين الجبال العابسة المطلة على البحر الأبيض المتوسط وسلسلة جبال أطلس التي تصد عنها رمال الصحراء واد شبه مدارى يمد نهر بجراداس . Bagra das ( مجردا ) بكفايته من الماء ؛ وكانت الأمطار تهطل فيها شهرين من السنة لتعوض الأهلين عن عملهم الزراعى الشاق الطويل الذى علمهم إياه . ماجو Mago وأرعمهم عليه ماسينسا Masinissa . ولكن رومة أصلحت ما وجدته فيها من الأساليب الزراعية وزادت عليه . فقد شاد مهندسوها السدود على مجارى الأنهار التي تنحدر من التلال الجنوبية ، واختزنوا الزائد من المياه فى خزانات إبان موسم الأمطار ، وصبوه فى قنوات للرى فى الأشهر الحارة التي تجف فيها مياه الأنهار (٧) . ولم تكن رومة تفرض على هذه الولايات أكثر مما كان يجيبه منها رؤساؤها الوطنيون ، ولكن فيالئى رومة ونخصيناتها كانت أقدر من حكوماتها الوطنية على حمايتها من القبائل البدوية التي تهبط عليها من الجبال ؛ وكان يضم إليها ميل بعد ميل من الصحراء أو الأراضى البور فتزرع أو تسكن . وكان الوادى ينتج كميات من زيت الزيتون بلغت من الوفرة حداً أدهش العرب حين قدموا إلى هذه البلاد فى القرن السابع ، إذ وجدوا أن فى وسعهم أن ينتقلوا من طرابلس إلى طنجة دون أن يبتعدوا عن ظلال أشجار الزيتون (٨) . وأخذت البلدان والمدن يتضاعف عددها ويرتفع شأنها بفضل ما اتبع فيها من الأساليب المعمازية .

ووجدت الآداب فيها صوتاً جديداً يعبر عنها . وحسبنا دليلاً على ما بلغته أفريقية الرومانية من الرقي والثراء أن نشاهد آثار ما خلفه الرومان من أسواق وهياكل وقنوات بحر مياه الشرب للمدن ، ودور للتمثيل في أرض أصبحت الآن فقراً يباباً . ذلك أن هذه الحتمول النادرة قد استحوطت الآن صحارى زملية ، ولم يكن سبب هذا تغير الجولبل كان سببه تبدل الحكم - من دولة تضمن للبلاد الأمن الاقتصادي والنظام إلى أخرى تركت العنان للفوضى والإهمال يخربان الطرق والخزانات وقنوات الري .

وكان على رأس هذا الرخاء المستعاد مدينة قرطاجنة التي بعثت وقتئذ بعثاً جديداً . ذلك أن أغسطس قد احتضن بعد موقعة أكتيوم مشروع كيوس وقيصر الذي أخفق من قبل ، وأرسل إلى قرطاجنة بعض الجنود الذين أراد أن يعرضهم عن إخلاصهم وانتصاراتهم أرضاً يهبها لهم ليستعمروها . وسرعان ما انتزعت قرطاجنة مرة أخرى من يتكا تجارة الإقليم الصادرة منه والواردة إليه ، وذلك بفضل موقعها الجغرافي الممتاز ، ومرفئها الجيد ، ودال نهر بجر داس الحصبة ، والطرق الصالحة التي أنشأها المهندسون الرومان أو أعادوا فتحها ؛ ولم يمض على تأسيس المدينة الجديدة قرن واحد حتى أضحت أكبر مدائن الولايات الغربية ، وأقام أغنياء التجار والملاك قصوراً فخمة على تل برسا Byrsa التاريخي ، أو بيوتاً صغيرة ذات حدائق في الضواحي الشجرية ؛ أما الفلاحون الذين تركوا الأرض لعجزهم عن منافسة أمختاب الضياع الكبرى فقد انضموا إلى صعاليك المدن وإلى الأرقاء، وعاشوا في أحياء وبيوت قلدة حياة العدم والفاقة التي جعلتهم يرحبون فيما بعد بدعوة المسيحية إلى المساواة . وقامت البيوت في المدينة من ست طبقات أو سبع ، وتلأل الرخام في المباني العامة ، وغصت الشوارع والميادين بالتماثيل المنحوتة على الطراز اليوناني . وشيدت الهياكل من جديد لآلهة القرطاجنيين القديمة ، وظل ملكارت Melkart حتى القرن الثاني بعد الميلاد يستمتع بالضحايا

من أطلال الأحياء<sup>(٩)</sup> . وأخذ أهل البلاد ينافسون الرومان في حب الترف ، وأدهان التجميل ، والحلى ، والشعر المصبوغ ، وسباق العربات ، وألعاب المجالدين . وكان من بين المناظر البارزة في المدينة حماماتها العامة العظيمة التي وهبها لها ماركس أورليوس . وكانت فيها قاعات للمحاضرات ، ومدارس لتعليم البيان ، والفلسفة ، والطب ، والقانون ، مما جعل قرطاجنة مدينة جامعية لا يفوقها من هذه الناحية إلا أثينة والإسكندرية ؛ وفد إليها أبوليوس Apuleius وترتليان Tertullian ليدرسا فيها جميع فروع العلم ، وقد دهش القديس أوغسطين من مرح الطلاب وفساد أخلاقهم ، فقد كان يحاو لهم أن يقتحموا قاعات المحاضرات ويخرجوا منها الأستاذ وتلاميذه<sup>(١٠)</sup> .

وكانت قرطاجنة حاضرة الولاية المسماة أفريقية ومحلها الآن شر<sup>١</sup> . بلاد تونس . ونشأ من رواج التجارة في جنوبي هذه المدينة على الشاطئ الشرقي طائفة من المدن أخذت ثروتها القديمة تعود إليها بعد اثني عشر قرناً من الزمان حتى دهمتها الحروب في هذه الأيام ، ومن هذه المدن القديمة حضرمتم Hadrumentum ( ومحلها الآن سوسة ) ولپتس Leptes الصغرى ، وثپسوس Thapsus وتكابي Tacapae ( قابس الحالية ) . وكان إلى شرقيها على البحر الأبيض لإقليم يدعى تريپوليس Tripolis ( طرابلس ) وسمى كذلك لأنه حلف مكون من ثلاث مدن : أويا Oea ( طرابلس الحالية ) التي أسسها الفينيقيون قبيل عام ٩٠٠ ق . م ، وسبراتا Sabrata ولپتس مجنا ( الكبرى ) . ( لبة الحالية ) : وهذه البلدة الأخيرة هي مسقط رأس الإمبراطور سپتيموس سفيرس Septimius Severus فقد ولد فيها عام ١٤٦م ؛ ووهبها في حياته باسلفا وحماما عاما تدهش آثاره السائح أو المحارب في هذه الأيام . وكانت طرق مرصوفة تسير عليها قوافل الإبل تصل هذه الثغور بالمدن الداخلية : سفتولا Safetula وهي الآن قرية صغيرة بها آثار هيكل روماني عظيم ، وثسدروس Thysdrus ( الجم ) ، وكان فيها مدرج

يتسع لستين ألفاً ، وثُججا Thugga ( دجا ) التي تشهد خرائب ملهاها ذى الصمد الكورنشية الرشيمة بئراء أهلها وحسن ذوقهم .

وكانت في شمال قرطاجنة أمها ومنافستها القوية يتكا Utica ، وفي وسعنا أن نلمح ما كانت عليه من ثراء في عهد الرومان ، إذا عرفنا أن ثلثمائة من رجال المصارف وبائعي الجملة من الرومان كانت لهم فروع فيها . عام ٤٦ ق . م . وكان الإقليم التابع لها يمتد شمالاً إلى هيو دير هيتس Hippo Diarhytus بنزرت الخيالية ) ، وكان يمتد فيها طريق محاذ لشاطئ البحر متجه نحو الغرب يصلها بمدينة هبورجيوس Hippo Regius ( بونه ) ، التي أضحت بعد زمن قليل كرسي أبرشية القديس أوغسطين . وكان إلى جنوبيها في الداخل مدينة سرتة Cirta (قسطنطينية) عاصمة ولاية نوميديا ، وفي غرب هذه المدينة الأخيرة بلدة ثمجادي Thomugadi ( ثمجاد ) ، التي تكاد تحتفظ بآثارها احتفاظاً طمياً ؛ ففيها الشوارع المرصوفة المعبدة ، والحجارى المسقمة ، وفيها قوس نصر ظريف ، وسوق عامة ، وبناء مجلس الشيوخ ، وباساقما ، وهياكل ، وحمامات ، وملهى ، ومكتبة ، وبيوت خاصة كثيرة . وقد عثر في أرض السوق على لوحة للعب الداما نقشت عليها هذه العبارة : Venari, lavari, ludere, rider, hoc est vivere — ومعناها : « الصيد ، والاستحمام ، واللعب ، والضحك ، هذه هي الحياة » (١٢) . والفيلق الثالث الذى كان وحده يحرس الولايات الأفريقية هو الذى أنشأ ثمجادي حوالى عام ١١٧ م . ثم اتخذ في عام ١٢٣ مركزاً بقيادته يقيم فيه أكثر مما يقيم في ثمجادي ويبعد عنها بضعة أميال نحو الغرب ، وأنشأ فيه مدينة لمبسيس Lambaesis (لمبيز) . وهنا تزوج الجنود واستقروا ، وعاشوا في بيوتهم أكثر مما كانوا يعيشون في المعسكر . ولكن معسكرهم نفسه كان مرحاً - فخماً ، جميل الزينة ، به حمامات لا تقل في جمالها عن أية حمامات أخرى في أفريقية . أما في خارج المعسكر فقد أعانوا الأهلين في بناء هيكل لچوپتر ، وعدد من الهياكل ، وأقواس النصر ، ومدرج

يقام فيه الصراع ويحدث فيه الموت فيخففان من ملل الحياة السلمية الرتيبة .  
وكان الذى يمكن فيلقاً واحداً من حماية أفريقية الشمالية من القبائل المغيرة  
الضارية فى الداخل هو إنشاء شبكة من الطرق ، كان الغرض الأول منها  
عسكريا ولكنها كانت عظيمة النفع من الناحية التجارية ، وكانت تربط  
قرطاجنة بالمحيط الأطلنطى ، والصحراء بالبحر الأبيض المتوسط . وكان  
الطريق الرئيسى يتجه نحو الغرب من سرته إلى قيصرية عاصمة مورتانيا  
( مراكش ) ؛ وهنا نشر الملك چوبا الثانى Juba II أساليب الحضارة بين  
المورى Mauri أى السود ( المغاربة ) الذين اشتق من اسمهم اسم الإقليم  
فى الزمن القديم واسمه فى هذه الأيام . وكان چوبا الثانى هذا ابن چوبا  
الذى مات فى ثبوسوس ، وأخذ وهو طفل إلى رومة ليزدان به موكب  
قيصر ؛ ثم عفى عنه ، وأخذ يدرس فى رومة حتى أصبح من جهابذة العلماء  
فى أيامه . وعينه أغسطس قيلا على مورتانيا وأمره أن ينشر بين بنى وطنه  
الثقافة الرومانية التى جد فى تحصيلها . ونجح فى هذه المهمة ، وكان من  
أسباب نجاحه أن امتد حكمه ثمانية وأربعين عاما ؛ واشد ما كانت دهشة  
رعاياه حين رأوا رجلا يكتب الكتب ويحكم . وجاء كلجيولا بابن چوبا  
هذا إلى رومة وأماته جوعاً ، وضم كلوديوس مملكته إلى رومة وقسمها  
ولایتين : مورتانيا سيزرينسس Caesariensis ( مورتانيا القيصرية )  
ومورتانيا تنجيتانا Tingitana ( مورتانيا التنجيتانية ) نسبة إلى عاصمتها تنجيس  
Tingis وهى طنجة الحالية .

وكان فى هذه المدن الأفريقية مدارس كثيرة مفتحة الأبواب للفقراء والأغنياء  
على السواء . نسمع أنه كان يدرس فيها الاختزال (١٣) ، ويسمى چوئفال أفريقية  
مرية المحامين (١٤) . وقد أنجبت فى هذا العهد مؤلفين أحدهما صغير والآخر كبير  
— هما فرنسو وأبوليوس . ولكن الأدب الأفريقى لم تكن له الزعامة على آداب  
العالم إلا أيام مجده فى عهد المسيحية . وكان اوسوس أبوليوس شخصية غربية  
جديرة بالتصوير ، أكثر من شخصية منتان المتعدد الكفايات وكان مولده فى

ملبوراً *Madaura* من أسرة عريقة النسب ( ١٢٤ م ) ، وقد درس فيها وفي قرطاجنة وأثينة ، وبدد ثروة كبيرة ورثها عن أسرته ، وأخذ يتنقل من مدينة إلى مدينة ومن دين إلى دين ، وانضم إلى الجماعات ذات الطقوس اللدنية الخفية ومارس السحر وألف كتباً كثيرة في موضوعات تختلف من اللاهوت إلى مسحوق الأسنان ، وألقى محاضرات في الفلسفة والدين في رومة وغيرها من المدن ، ثم عاد إلى أفريقية وتزوج في طرابلس من سيدة تكبره وتفوقه في الثراء . فلما فعل هذا رفع أصدقائها وورثتها المنتظرون الأمر إلى القضاء مطالبين بإلغاء الزواج ، واتهموه بأنه حصل على موافقة السيدة عليه بفنون السحر ؛ ودافع الرجل عن نفسه أمام المحكمة بخطبة وصلت إلينا بعد أن أدخل عليها بعد أيامه كثير من الصقل والتنميق ، وكانت نتيجتها أن كسب القضية والزوجة ، ولكن الناس أصروا على الاعتقاد بأنه ساحر ؛ ولما ظهر المسيح أخذ خلفاء هؤلاء القوم يحطون من قدره بتعداد معجزات أبولوس . وقضى الرجل بقية حياته في مدورا وقرطاجنة يمارس صناعتي الحمامة والطب ، وكتابة الرسائل والخطب ، ولكن معظم ما كتب كان في الموضوعات العلمية والطبيعية ، وقد أقامت له مدينته نصيباً تذكاريًا نقشت عليه باللاتينية العبارة الآتية : **الفيلسوف الأفراطوني** ، ولو أنه استطاع العودة إلى الحياة لساءه ألا يذكره الناس إلا بكتابه **الحمار الذهبي** .

وهذا كتاب شبيه كل الشبه بكتاب **ساتيريكون Satyricon** لمؤلفه بتر ونيوس ، بل هو أكثر منه غرابة وشذوذاً . وكان الاسم الأول لهذا الكتاب هو **أهمر عشر كتاباً في التحول Metamorphoséon Lebrí XI** ، وهو توسع غريب في قصة رواها لوسيوس البتراسي عن رجل انقلب حماراً . ويتألف من سلسلة غير مرتبطة من المغامرات ، والوصف ، والحوادث المحشورة فيها حشراً ، يتخللها السحر ، والرعب ، والفحش في القول ، والحديث عن التقوى المرجأة .

ويروى لوسيوس بطل القصة كيف طاف بتساليا واستمتع فيها بعدد من الفتيات وألقى نفسه أينما حل في جو من السحر . ومما جاء في هذا الكتاب :

« وما كاد الليل ينقضى ويزغ فجر يوم جديد حتى كان من حظي أن أستيقظ ، وأن أقوم من فراشي وأنا نصف مدهول ، راغب حقاً في أن أعرف وأرى أشياء عجيبة محيرة . . . والحق أني لم أكن أرى شيئاً أعتقد أنه كما أراه في الواقع ؛ بل إن كل شيء بدا لي أنه قد تحول إلى صور أخرى بتأثير قوة السحر الحبيثة . وبلغ من قوة اعتقادي هذا أن ظننت أن الحجارة التي قد تعثر بها تدمای تصلبت واستحالت من رجال إلى الصورة التي هي عليها ، وأن الطيور التي سمعتها تغرد ، والأشجار والمياه الجارية ، استحالت إلى هذا الريش والورق ومنايع الماء ، من صور أخرى غير هذه الصور . وكذلك ظننت أن التماثيل والصور ستتحرك في مستقبل الأيام ، وأن الجدران ستتكلم وتروى أخباراً عجيبة ، وإني سأسمع من فوري وحياء من السماء ومن شعاع الشمس (١٥) .

والآن وقد أصبح لوسيوس مستعداً لأية مغامرة يريدتها ، يقول إنه يدلك جسمه بحرهم سحري ، وهو شديد الرغبة في أن يستحيل طائراً ؛ ولكنه حين يدلك نفسه بهذا المرهم يستحيل حماراً . وتروى القصة بعدئذ ما يلقاه من الخن ذلك الحمار « الذي له إحساس الإنسان وإدراكه » . وكانت سلواه الوحيدة هي « أذني الطويلتين اللتين أستطيع بهما أن أسمع كل شيء ولو كان شديد البعد عني » . وقد قيل له إنه سيعود إلى صورته الآدمية إذا عثر على وردة وأكلها ، وهي أمنية يدركها بعد أن يمر بطائفة كبيرة من الحظوظ الحمارية منها ما هو طيب ومنها ما هو سيئ . ثم كره الحياة ، فلجأ أولاً إلى الفلسفة ، ثم إلى الدين ، وألف دعاء يشكر فيه إيزيس شكراً بينه وبين ابتهال المسيحيين إلى أم الإله شبه عجيب (١٦) . ثم يخلق رأسه ويقبل في الطبقة الثالثة من أتباع إيزيس المبتدئين . ويرصف طريقاً يعود به إلى الأرض بعد أن يفسر حلماً يأمره فيه أوزريس « أعظم الآلهة » بأن يعود إلى وطنه ويشغل بالقانون .

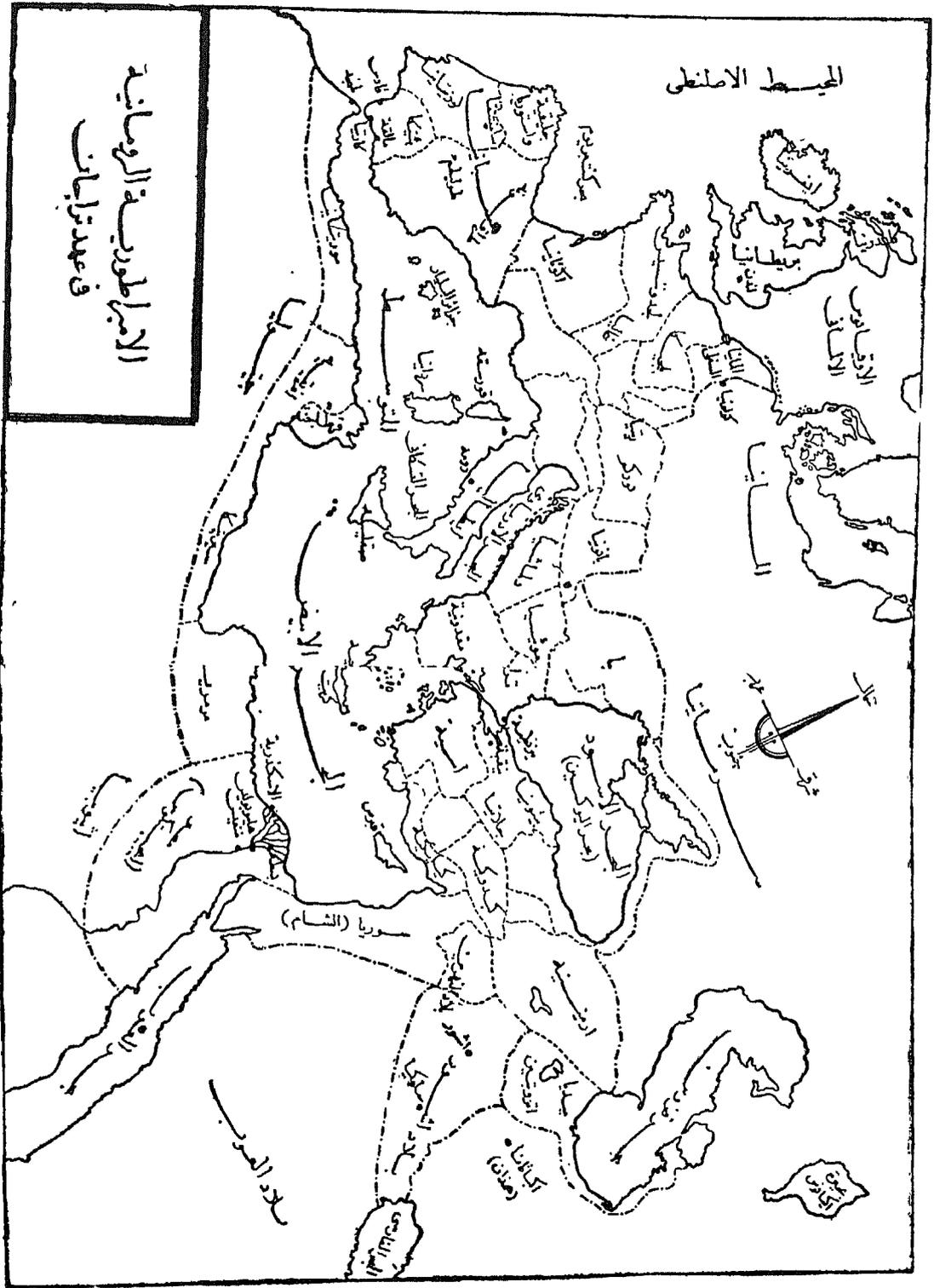
وما أقل الكتب التي تحوى كل ما يحتويه هذا الكتاب من السخف ، ولكن أقل منها ما يعبر عن سخفه بعبارة تماثل عبارة هذا الكتاب في طلاوتها . ذلك أن أبوليوس يحاول فيه كل أنواع الأساليب ، ويلبس كل أسلوب حواره أجهل لباس ؛ وأكثر ما يجبه من الأساليب هو الأسلوب المطنّب المنمق المسجوع المتجانس الأحرف في بداية الألفاظ ، المليء بالعبارات العامية الطريفة . والألفاظ القديمة المهجورة ، والكلمات المصغرة العاطفية ، والنثر الموزون والشعري في بعض المواضع . وقصارى القول أن الكتاب يضم إلى الأسلوب الشرقي القوي ما في الشرق من غموض وشهوانية(\*) . واهل أبوليوس قد أراد أن يشير من طرف خفي ، مستنداً إلى تجاربه الخاصة ، إلى أن الانهماك في الشهوة الجنسية يذهب بالعقل ويبدل الآدميين بهائم ، وإلى أن السبيل الوحيدة التي يعودون بها إلى آدميتهم هي اقتطاف زهرة الحكمة والصلاح . وهو يبدو أحسن ما يكون في القصص العارضة التي يلتقطها بأذنيه القويّتين الدوارتين ، كما نرى في قصة العجوز التي تسلى فتاة بأن تروى لها قصة كيويو وسيكى (١٧) - فتخبّرها كيف وقع ابن الزهرة ( فينوس ) في حب فتاة حسناء ، وهياً لها كل أنواع السرور إلا سرورها برويته ، وأثار غيره أمه الشديدة ، ثم نالت آخر الأمر سعادتها في السموات العلى . ولسنا نعرف مصوراً ، بز قلمه لسان هذا الأشيب السليط ، في رواية هذه القصة القديمة .

---

(\*) لسنا ندرى ما يصف المؤلف الشرق بالشهوانية وأية شهوانية في الشرق تفوق ما وصف به هونفسه عصر نيرون وغيره من الأباطرة في هذا الكتاب . ( المترجم )

البحر المتوسط

الامبراطورية الرومانية  
في عهد ترايان

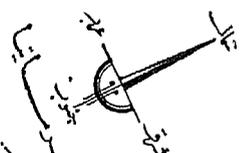


البريطانيا

الجزيرة العربية

سوريا (الشام)

بلاد الهند



شرق

غرب

جنوب

شمال

## الفصل الثالث

### أسبانيا

إذا عبرنا المضيق من طنجة انتقلنا من ولاية من أقدم ولايات رومة إلى ولاية من أحدثها . وتقع أسبانيا في موقع عظيم الخطر من الناحية الحربية ، عند مدخل البحر الأبيض المتوسط ؛ وفي جوف أرضها معادن ثمينة كانت نعمة عليها ونقمة روت أرضها بدماء الشره ، وتخرقها سلاسل الجبال التي تعوق سبل الاتصال ، وامتزاج السكان ووحدهم . وقد أحست أسبانيا بحمى الحياة الشديدة من اليوم الذي كان فيه الفنانون في العصر الحجري القديم يصورون الثور الوحشي . (البيزون) على جدران الكهوف في ألتيرا إلى أيامنا الحاضرة المضطربة . ولقد ظل الأسبان ثلاثين قرناً شعباً حربياً ذا عزة وأنفة ، وأجسام نحيلة قوية ، وشجاعة وجلد ؛ وكانوا ولا يزالون صلاب الرأي ، أقوياء العاطفة ، يمتازن بالزراعة والاكتئاب ، والاقتصاد وكرم الضيافة ، والمجاملة والمرورة ، يسهل استثارة بغضهم ، ويسهل أكثر من هذا استثارة حبهم ، ولما جاء الرومان إلى بلادهم وجدوا فيها سكانا يتألفون حتى في ذلك الوقت البعيد من أجناس مختلفة يتعذر فصل بعضها عن بعض : منهم الإمبريون من أفريقية ، واللجوريون من لإيطاليا ، والكالت من غالة ، وعلى رأسهم طبقة من القرطاجنيين . وإذا جاز اننا أن نصدق الرومان الذين فتحوا بلادهم قلنا إن الأسبان كانوا قبل الفتح الروماني شعباً قريبا من الهمجية ، يعيش بعضه في مدن وبيوت ، وبعضه في قرى وأكواخ وكهوف ، ينام على أرض الحجرات أو على الطين ، ويغسل أسنانه بالبول الممتق (١٨) . وكان الرجال يلبسون عباءات سوداء والنساء يرتدين « مآزر طوالا

وجلايب زاهية الألوان » ، ويضيف استرابون إلى هذا قوله في سياق اللوم والتأنيب « إن النساء يرقصن مع الرجال ويمسكنهم بالأيدي (١٩) » .

وقد أنشأ سكان جنوبي أسبانيا الشرقي - في ترستوس وهي ترشيش Tarshish الفينيقية - حوالى عام ٢٠٠٠ ق . م صناعة البرنز ، وكانوا يبيعون منتجاتها في جميع بلاد البحر الأبيض المتوسط . وأنشأت ترستوس على أساس هذه الصناعة ، في القرن السادس قبل الميلاد ، أدبا وفنا قال أهلها إن عمرها كان في ذلك الوقت يبلغ ستة آلاف عام . على أنه لم يبق من آثار الفن سوى بضعة تماثيل فجوة وتمثال نصفى متعدد الألوان منحوت من حجر الخرسان ، وتمثال إلكي Elche المشابه للتماثيل اليونانية والمنحوت على نمط كلتي قوى فياض . وشرع الفينيقيون حوالى عام ١٠٠٠ ق . م يبحثون عن ثروة أسبانيا المعدنية ، ولم يحل عام ٨٠٠ حتى استولوا على قادس ومالقه Malaga وشادوا فيهما هيكلين عظيمين . ثم استقر المستعمرون اليونان حوالى عام ٥٠٠ ق . م على الساحل الجنوبي الشرقي ، وفي ذلك الوقت عينه أو حواليه استعان الفينيقيون ببني عمومتهم القرطاجنيين لإخماد ثورة في البلاد ففتحوا ترستوس وجميع أسبانيا الجنوبية والشرقية ، وكان من أثر استغلال القرطاجنيين لشبه الجزيرة استغلالا سريعا بين الحرب البونوية الأولى والثانية أن فتح الرومان أعينهم على ما في البلاد التي يسمونها « أيبيريا » من موارد ثروة غنية ، فكان تحرك سيديو إلى أسبانيا هو الذى قضى آخر الأمر على انقضا هنيبال على إيطاليا . ودافعت القبائل الأسبانية المفككة عن استقلالها دفاع الأبطال ، فكان النساء يفضلن قتل أبنائهن على وقوعهم أسرى في أيدي الرومان ، وكان الأسرى من الرجال ينشدون أغانيهم الحربية وهم يموتون مصلوبين (٢٠) . وتطلب فتح أسبانيا مائتى عام ، ولكنها بعد أن تم فتحها كانت دعامة للدولة أقوى من معظم الولايات : وأحل ولدا جراكس ، وقيصر ، وأغسطس سياسة المجاملة والاحترام محل سياسة القسوة التي كانت تجرى عليها الجمهورية

وأثمرت السياسة الجديدة أحسن الثمرات وأدومها ، فأخذت البلاد تصطبغ اصطبغاً سريعاً بالصبغة الرومانية ، وانخذ الأهلون اللاتينية لغة لم بعد أن كيفوها بما يلائم طبيعتهم ، ونمت اقتصاديات البلاد واتسعت ، وأخذت تمد رومة بالشعراء ، والفلاسفة ، وأعضاء مجلس الشيوخ والأباطرة .

وظلت أسبانيا الدعامة الاقتصادية للإمبراطورية من أيام سنكا إلى عهد أورليوس ، فأغنت المعادن الإسبانية رومة كما أغنت من قبل صور ثم قرطاجنة ؛ وكانت لإيطاليا كما كانت بلاد المكسيك وبيرو لها هي فيما بعد . فاستخرج من أرضها الذهب ، والفضة ، والنحاس ، والقصدير ، والحديد ، والرصاص . وبدل فيها من العناية والدقة ما يبذل في استخراجها في هذه الأيام . ولا يزال . وسع المرء أن يرى في هذه الأيام مناجم عند ريو ننتو Rio Tinto بعيدة القرار محفورة في صخور الكوارتز الصماء ، ويشاهد فضلات من الصخور باقية من أيام الرومان ولم يبق فيها إلا نسبة من النحاس يدهش الإنسان من ضآلتها . وكان الأرقاء والأسرى يعملون في هذه المناجم يوماً بعد يوم ، وكثيراً ما كانوا يقضون الشهور الطوال دون أن ترى أعينهم ضوء الشمس<sup>(٢٢)</sup> . ونشأت بجوار المناجم صناعات معدنية عظيمة . وكانت أرض أسبانيا في هذه الأثناء رغم ما فيها من جبال وقنوات جدياء تخرج الحلفاء التي تصنع منها الحبال الرفيعة والسميكة ، والسلال ، والفرش ، والأخفاف ، وتغذى الضأن وتخرج صناعة الصوف الذائعة الصيت ، وتمتد الإمبراطورية بأحسن ما عرفه الأقدمون من أنواع الخمر وزيت الزيتون . وكانت أنهار الوادي الكبير والتاجه والإبرة وغيرها من الجاري التي هي أصغر منها تساعد شبكة الطرق الرومانية على حمل غلات أسبانيا إلى ثغورها وإلى مدنها التي يخطها الحصر .

والحق أن أعظم النتائج التي تمخض عنها الحكم الروماني في هذه البلاد نتيجة تمازجها الإمبراطورية الرومانية على سائر الإمبراطوريات وهي تضاعف عدد المدن أو اتساع رقعتها . فقد كان في ولاية بيتكا Baetica ( الأندلس Andalusia

الحديثة ( مدائن كارتيا Carteia ( الجسر ) ومندا ( Munda ) ومالقة ، وإيطاليا ( مسقط رأس تراچان وهديران ) ، وقرطبة ، وهسپالس ( أشبيلية ) ، وقادس . ونشأت قرطبة في عام ١٥٢ ق . م ، وكانت مركزاً أدبياً عظيماً واشتهرت بما فيها من مدارس لتعليم فنون البلاغة ، وفيها ولد لوكان ، وسنكا الأكبر والأصغر ، وجليو Gallio محرر القديس بولس . وقد احتفظت هذه المدينة بتقاليدها العلمية حتى العصور الوسطى ، وبفضلها كانت قرطبة أعظم مدن أوروبا علماً . وكانت قادس أكثر مدائن أسبانيا سكاناً ، وكانت غنية غنى فاحشاً . ذلك أنها لوقوعها عند مصب نهر الوادي الكبير كانت تسيطر على تجارة المحيط الأطلنطي مع غرب أفريقيا ، وأسبانيا ، وغاله ، وبريطانيا ؛ وقد أضافت فتياتها الراقصات الرشيدات قدراً لا بأس به إلى شهرتها .

وكانت بلاد البرتغال تعرف عند الرومان باسم لوزتانيا Lusitania . كما كانت لشبونة تعرف عندهم باسم أولزيبو Olisipo . وأقام مهندسو تراچان جسراً على نهر التاجة عند نوربا قيصرية Norba Caesarena ( التي أطلق عليها العرب اسمها الحديث القنطرة ) هو أكمل جسر رومانى بقي على حالته حتى اليوم . ولا تزال عقود القنطرة التي يبلغ اتساعها مائة قدم والتي تعلو مائة وثمانين قدماً فوق قاع النهر ، تحمل طريقاً من أربعة دروب كثير الحركة . وكانت عاصمة لوزتانيا هي مدينة إمرينا ( مريده Mérida ) وكانت تزدهر بما فيها من تماثيل كثيرة ، ونباتات قنوات بحر مياه الشرب ، وبجلبه للألعاب ، ودار للتمثيل ، وبجيرة لتمثيل المعارك البحرية ، وقنطرة طولها ٢٥٠٠ قدم . وكان إلى شرقها في ولاية تراكونسس Tarraconensis مدينة سجوفا Segovia التي لا تزال تستمتع بالمياه النقية تحملها إليها قناة أنشئت في عهد تراچان . وكان إلى جنوبها مدينة طليطم ( طليطلة Toledo الحديثة ) التي اشتهرت في عهد الرومان بما فيها من مصانع الحديد ، وقامت على الساحل الشرقى مدينة نوفا كرتاجو Nova Carthago

(قرطاجنة الحديثة) التي أثرت من مناجمها ، ومصائد سمكها ، وتجارتها  
وكان في البحر الأبيض بالقرب من أسبانيا جزائر البليار ، وكانت فيها مدينتا  
بلما Palma ، وپولنتا Pollentia . وكانتا في ذلك العهد مدينتين قديمتين  
مزدهرتين . وكان على الساحل الشرقي نحو الشمال مدائن بلنسية ، وتراكو  
Tarraés (Tarragona) ( طرقونة ) وپرسينو ( برشلونة ) ، وكان إلى  
جنوب جبال البرانس مباشرة بلدة إمپوريا Emporiae القديمة : فإذا ما سار  
المسافر سميئته مسافة قليلة حول حافة الجبال الشرقية ألقى نفسه في  
بلاد غالة .

## افضل الرابع

### غالة

لقد كان في مقدور جميع السفن ذات الحمولة المتوسطة ، بما فيها سفن المحيطات ، أن تسير في تلك الأيام في نهر الرون من مرسيليا إلى ليون . أما القوارب الصغيرة فكانت تستطيع مواصلة السير إلى ما يقرب من أربعين ميلا من نهر الرون الأعلى . فإذا نقلت البضائع بعد ذلك مسافة قصيرة فوق أرض مستوية استطاع الناس بعدها أن ينقلوها بالسفن مارة بمائة مدينة وألف قصر صغير إلى بحر الشمال . وكانت قفزات أرضية شبيهة بهذه القفزة تؤدى من الرون والساوثون إلى اللوار وإلى المحيط الأطلنطي ، ومن الأود Aude إلى الجارون وبردو ، ومن الساوثون إلى السين وبحر المانش : وكانت التجارة تسير في هذه الطرق المائية ، ونشأت بفضلها مدائن عند ملتقاها ، وكانت فرنسا ، كما كانت مصر ، هبة مجاريها المائية .

ويمكن القول إن الحضارة الفرنسية — بأحد المعاني التي يمكن أن تفهم من لفظ الحضارة — بدأت منذ أيام « الرجل الأوريناسي Ourignacian man » . أى قبل ميلاد المسيح بثلاثين ألف عام ، فقد كان في هذا الوقت البعيد ، كما تدل كهوف منتنيك Montignac ، فنانون يستطيعون أن يصوروا بالألوان الزاهية والخطوط الواضحة . ثم انتقلت فرنسا حوالى عام ١٢٠٠٠ ق.م من ذلك العصر الحجري القديم ، عصر الصيد والرعى ، إلى حياة الاستقرار وفلاح الأرض في العصر الحجري الحديث ، وانتقلت منه بعد عشرة آلاف عام طوال إلى عصر البرنز . وحوالى عام ٩٠٠ ق.م أخذ جنس جديد هو الجنس « الألبى » المستدير الرؤوس يتسرب إلى البلاد من ألمانيا ، وينتشر في فرنسا ، ومنها إلى بريطانيا وأيرلندا .

ثم ينزل إلى أسبانيا . وجاء هؤلاء « الكلت » معهم بثقافة هولستات Hallstatt الحديدية من النمسا . ثم استوردوا من سويسرا حوالى عام ٥٥٠ ق . م فن لاتين La Tène فى صناعة الحديد ، وكان قد تقدم تقدماً كبيراً فى سويسرا . وسمت رومة فرنسا أول ما عرفتها باسم كلتيكا Celtica ولم يتغير هذا الاسم إلى غالة Gallia إلا فى عهد قيصر .

وغلب المهاجرون أهل البلاد أوفاقوهم فى عددهم ، واستقروا قبائل مستقلة لا تزال أسماؤها تتم عليها المدن التى شادوها(\*) . ويقول قيصر إن الغالين كانوا قوما طوال القامة ، أقوياء الأجسام ظاهرى العضلات (٢٣) ، يمشطون شعرهم الغزير الأشقر ويرسلونه خلف رؤوسهم وعلى أفقيتهم ، وكان بعضهم يطيلون لحاهم ، والكثيرون منهم يتركون شواربهم تنثنى حول أفواههم . وقد نقلوا معهم من بلاد الشرق ، وربما كان ذلك عن الإيرانيين الأقدمين ، عادة لبس السراويل القصيرة ، وأضافوا هم إليها رداء مصبوغا بألوان كثيرة ومطرزا بالأزهار ، ومن فوقه عباءة مخططة تتدلى من الكتفين . وكانوا مولعين بالجوهر ، ويتزينون فى الحروب بالحلى الذهبية - إن لم يكن عندهم ما هو أثمان منها (٢٤) . وكانوا يكثرون من أكل اللحم ، وشرب الجعة ، والخمر غير المخفف بالماء ، لأنهم كانوا « سكيرين بفطرتهم » إذا جاز لنا أن نصدق أبيان (٢٥) . ويصفهم استرابون بأنهم قوم « سنج ، ذوو شتم وكبرياء . . . لا يطيقهم أحد إذا انتصروا ، وتطير نفوسهم شعاعا إذا غلبوا » (٢٦) . ولكن علينا ألا نثق كل الثقة بهذه الأقوال لأنه ليس من الخير

---

(\*) منهم الأيباني Ambiani فى أمين Amiens ، والبلوفاكى Bellovaci فى بوفيه Beauvais والبتيوريج Bituriges فى بوج Bourge والكرنوت Carnutes فى شارتر Charteres والپاريسى فى باريس ، والبكتون Pictones فى پواتيه ، والرعى Remi فى ريمس Rheims والسنون Senon's فى سن Sens والسوسيون Suessiones فى سواسون Soissons الخ .

في كل الأحوال أن يكتب عن الناس أعداؤهم . وقد اشمازت نفس  
پوسيدونيوس حين رآهم يعلقون رؤوس أعدائهم بعد فصلها عن أجسامهم  
في رقاب جيادهم (٢٧) . وكان سهل استئثارهم للجدل والقتال ، وكانوا في  
بعض الأحيان يسلون أنفسهم في المآذب بأن يتبارزوا حتى يقتل بعضهم بعضا .  
ويقول عنهم قيصر : « لانهم كانوا أكفاء لنا في الشجاعة وفي التحمس  
للحرب (٢٨) ، ويصفهم أميانس مرسلينس Ammianus Marcellinus  
بأنهم :

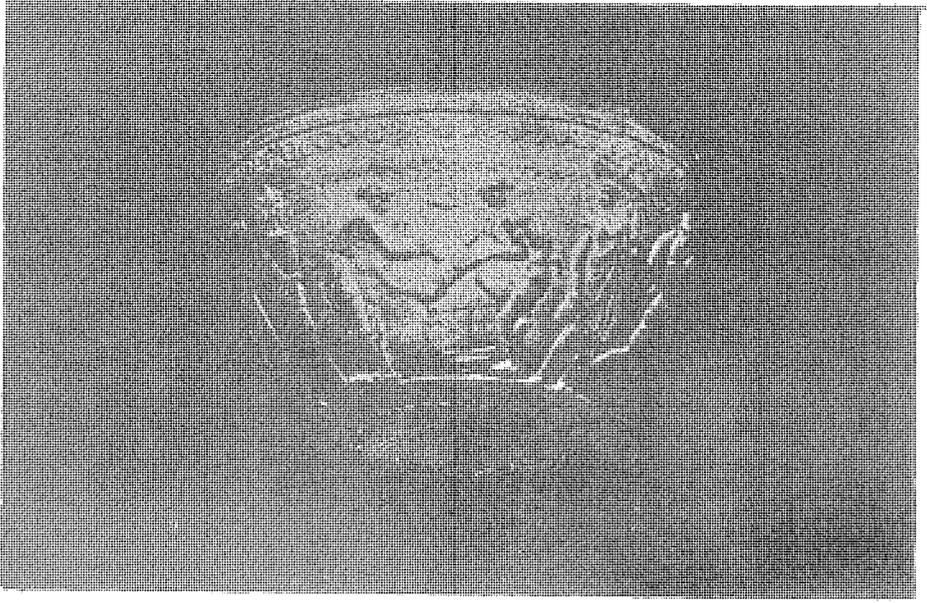
« مهما تكن سنهم يليقون للخدمة العسكرية ، فالشيخ منهم يخرج  
للحرب وهو لا يقل شجاعة عن الشاب في مقبل العمر . . . والحق أن  
سريه كاملة من الأجانب لتعجز عن الوقوف في وجه غالى واحد إذا دعا  
زوجته إلى تأييده ، وهى في العادة أشد منه بأساً وأعظم شراسة ، وخاصة  
إذا نفخت عنقها ، وعضت على أسنانها ، ولوحت بذراعيها الضخمتين ،  
وشرعت تكيل الضربات بيديها وقدميها كأنها حجارة تغذف من منجنيق » .  
وكان الغاليون يؤمنون بألهة كثيرة ، نسى الناس كل أمرها فلا ضير  
علينا إذا لم نذكر أسماءها . وكان اعتقادهم بحياة سعيدة في الدار الآخرة  
قويا إلى حد حمل قيصر على الحكم بأن هذا الإيمان كان له أكبر الأثر في  
شجاعة الغالين . ويقول فاليريوس مكسمس : إن قوة هذه العقيدة كانت  
تدفع رجالهم إلى أن يقرضوا المال على أن يرد إليهم في الدار الآخرة ،  
ويقول لسيدونيوس إنه رأى الغالين في إحدى الجنازات يكتبون الرسائل  
إلى أصدقائهم المتوفين ويلقون بها على كومة الحريق حتى يحماها الميت  
إلى المرسله إليهم (٣٠) ، وليتنا نستطيع أن نستمع برأى رجل غالى  
في هذه القصص الرومانية . وكان كهتهم يشرفون على جميع شئون  
التعليم ، ويعنون كل العناية بغرس العقيدة الدينية في نفوس المتعلمين ؛  
وكانوا يقومون بطقوس دينية ذات روعة ، يؤدونها في الأياك أكثر  
مما يؤدونها في الهياكل ، ويسترضون الآلهة بتقديم الضحايا البشرية

يأخذونها من المحكوم عليهم بالإعدام لجرائم ارتكبوها ؛ وقد تبدو هذه العادة همجية لمن لم يروا بأعينهم في هذه الأيام. طريقة الإعدام بالكهرباء ؛ وكان الكهنة هم الطائفة الوحيدة المتعلمة - ولعلها كانت الطائفة الوحيدة غير الأمية - في هذا المجتمع الغالي ؛ وكانوا يؤلفون الترانيم الدينية ، والقصائد ، ويكتبون السجلات التاريخية ، ويدرسون « النجوم وحركاتها » وحجم الكون والأرض ، ونظام الطبيعة « (٣١) . ، وقد وضعوا لأنفسهم تقويماً عملياً ؛ وكانوا قضاة لهم نفوذ كبير في بلاط ملوك القبائل . وكانت غالة قبل عهد الرومان ، كما كانت في العصور الوسطى ، تسيّر على النظام الإقطاعي المكتسب بثياب الحكم الديني . وبلغت غالة الكلتية ذروة مجدها تحت حكم هؤلاء الملوك والكهنة في القرن الرابع قبل الميلاد ، وازداد عدد السكان لوفرة الإنتاج الناشئ عن أساليب لاتين La Tène الفنية ، فأدى ذلك إلى سلسلة من الحروب للاستيلاء على الأرض ، ولم يحل عام ٤٠٠ ق . م حتى كان الكلت الذين يمتلكون معظم أوروبا الوسطى وغالة ، قد استولوا على بريطانيا ، وأسبانيا ، وشمال إيطاليا . وفي عام ٣٩٠ اندفعوا جنوباً نحو رومة ، وفي عام ٢٧٨ نهبوا دلفي واستولوا على فريجيا ؛ وبعد قرن من ذلك الوقت أخذت قوتهم في الاضمحلال ؛ وكان بعض السبب في هذا لين طباعهم الناشئ من ثروتهم ومن تأثرهم بالأساليب اليونانية ، وبعضه الآخر قوة أمراء الإقطاع السياسية . فكما أن الملوك قد قضوا في العصور الوسطى على قوة الأمراء وأنشؤا بعد القضاء عليها دولة موحدة ، كذلك قضى أمراء الإقطاع في القرن السابق لظهور قيصر على سلطة الملوك ، وتركوا غالة مقطعة الأوصال أكثر من ذي قبل . وأخذ الكلت يردّون إلى الوراء في كل مكان عدا أيرلندا ، فأخضعهم القرطاجيون في أسبانيا ، وأخرجهم الرومان من إيطاليا ، وفتح الرومان في عام ١٢٥ ق . م جنوبي غالة لحرضهم على تأمين طريقهم إلى أسبانيا ، وجعلوا تلك البلاد ولاية رومانية . وفي عام ٥٨ ق . م استغاث زعماء الكلت بقيصر

ليساعدهم على صد سغارة ألمانية ، فأجابهم قيصر إلى ما طلبوا وحدد هو ثمن هذه المعونة .

وأعاد قيصر وأغسطس تنظيم غالة فقسماهما أربع ولايات : غالة النربونية الجنوب ، وهي المعروفة للرومان باسم پروفنسيا Provincia ولنا باسم پروفانس Provence ؛ وقد اصطبغت هذه الولاية إلى حد كبير بالصبغة اليونانية بسبب استيطان اليونان لشاطئ البحر الأبيض المتوسط ؛ وأكوتانيا في الجنوب الغربي ، ومعظم سكانها من الأيبيريين ، وغالة اللدجونية Ludgonensis في الوسط ، وكانت الكثرة الغالبة من أهلها من الكلت ، وبلجيكا في الجنوب الشرقي وكثرة أهلها ألمان . وقد أقرت رومة هذه الأقسام العنصرية وزادتها حدة لتتق بذلك ثورتها الجامعة ، فأبقت المقاطعات التي تسكنها القبائل المختلفة على حالها واتخذتها أقساماً إدارية . وكان الملاك هم الذين يختارون الحكام ، وقد ضمنت رومة ولاء هؤلاء الملاك بما كانت تقدمه لهم من عون ضد الطبقات الدنيا ، ومنحت حق المواطنة الرومانية مكافأة منها للغالين الموالين لها الذين يؤدون لها خدمات قيمة . وكانت جمعية إقليمية تضم ممثلين يختارون من كل مقاطعة تجتمع كل عام في مدينة ليون ؛ وقد قصرت وظيفتها في أول الأمر على القيام بطقوس عبادة أغسطس ، ولكنها ملبت أن انتقلت من هذا إلى التقدم بملتمسات إلى الحكام الرومان ، ثم أصبحت هذه الملتمسات توصيات ثم مطالب . وانزعجت شئون القضاء من أيدي الكهنة ، وبُدِّد شملهم ، واتبع القانون الروماني في فرنسا ، وظلت غالة ما يقرب من قرن خاضعة مستسلمة للنير الجديد .

وحدث في عام ٦٨ م وفي عام ٧١ م أن اندلع هيب الثورة زمنياً قصيراً بقيادة فندكس Vindex وسفيلس Civilis ، ولكن الأهلين لم يقدموا إلا عوناً قليلاً لهاتين الحركتين ، وفضلوا الاستمتاع بالرخاء ، والأمن والسلام على حب الحرية ؛



(شكل - ٤) مزرية من أرتين من مجموعة لوب بجلمة حارقد

وأصبحت غالة في ظل السلم الرومانية من أغنى أقسام الإمبراطورية ، وكانت رومة نفسها تعجب من ثراء الأشراف الغاليين الذين انضموا إلى مجلس الشيوخ في عهد كلوديوس ، وأخذ فلورس Florus بعد مائة عام من ذلك الوقت بذكر الفرق بين ثراء غالة المزهرة وضعف إيطاليا المضمحلة (٣٣) . فقد قطعت الغابات لتفسح الأرض للزراعة ، وجففت المستنقعات ، وارتقت أساليب الزراعة حتى لقد استخدمت حصادة آلية (٣٤) ، وانتشرت الكروم وأشجار الزيتون في كل مقاطعة ، وكان بلني وكوللا Columella في القرن الأول الميلادي يمتدحان نخور برغندية وبردو . وكانت في البلاد ضياع واسعة يفلحها العبيد وأقنان الأرض ويمتلكها أسلاف أمراء الإقطاع في العصور الوسطى ؛ ولكن كان فيها أيضاً كثيرون من صغار الملاك ، وكانت الثروة في غالة القديمة ، كما هي في فرنسا الحديثة ، موزعة توزيعاً أقرب إلى المساواة منه في أية دولة متمدينة أخرى . وتقدمت الصناعة بوجه خاص مقدماً سريعاً ، فلم يحل عام ٢٠٠ م حتى أخذ صناع الفخار والحديد ينتزعون أسواق ألمانيا وأسواق الغرب من إيطاليا ، والنساجون الغاليون يقومون بالجزء الأكبر من صناعة النسيج في الإمبراطورية ، وحتى كانت مصانع ليون تخرج الزجاج التجاري وأدوات زجاجية ذات روعة فنية ممتازة (٣٥) . وكانت البراعة الفنية في الصناعة يتوارثها الأبناء عن الآباء ، حتى أضحت جزءاً ثميناً من التراث الروماني ، وكانت الطرق التي أصلحها الرومان أو أنشئوها والتي يبلغ طولها ١٣٠٠٠ ميل غاصة بأدوات النقل والتجارة .

وأثرت بلدان كلتيكا القديمة بفضل هذه الحياة الاقتصادية المتسعة ، فأصبحت مدائن كبرى في غالة الرومانية ، فكانت بردجالا Burdegala ( هي بردو الحالية ) عاصمة أكو تانيا من أكثر ثغور المحيط الأطلنطي حركة وتجارة ، وكانت ليمونم Limonum ( ليموج ) وأفريكم Avaricum ( يورج ) وأغسطنتم Augustonemetum ( كليرمون - قران Clermont-Ferrand ) مدائن غنية

حتى قد استطاعت هذه المدينة الأخيرة أن تقدم لزئودوتس Zenodotus أربعائة ألف سسترس ليقم بها تمثالا ضخما لعطارد<sup>(٣٦)</sup> . وفي غالبا النربونية بلغت المدن من الكثرة درجة جعلت يبنى يصفها بأنها « أشبه بإيطاليا منها بولاية من ولاياتها » . وكان في الجهة الغربية مدينة طولوزا Tolosa ( طولوز الحالية ) التي اشتهرت بمدارسها ، وكانت ناربو Narbo نربونة (Narbonne) عاصمة الولاية في القرن الأول الميلادي أعظم مدائن غالة ، وأهم الثغور التي تصدر منها غلاتها إلى إيطاليا وأسبانيا ، وقد وصفها سيدونيوس أبولينارس Sidonius Apollinaris بقوله إن «فيها أسوارا ، وطرقاً للثغرة ، وحانات ، وعقودا وأروقة ذات عمد ، وسوقا عامة ، وملهي ، وهياكل وحمامات ، وأسواقا للبيع والشراء ، ومرامى ، وبجيرات ، وقنطرة ، وبحراً »<sup>(٣٨)</sup> . وكان إلى شرق هذه المدينة على طريق دوميتيا العظيم الذي يصل أسبانيا بإيطاليا بلدة نموسس Nemousus ( نيمز Nimes ) ، وقد شاد أغسطس المدينة بيتها المربع Maison Carrée الجميل تحليدا لذكري حفيديه لوسيوس وكبوس قيصر ؛ ومما يدعو إلى الأسف أن أعمدته الداخلية داخلية في جدران المحراب ، ولكن أعمدته الكورنثية المنفصلة لا تقل جمالا عن أية عمد في رومة . ولا تزال الاحتفالات تقام من آن إلى آن في مدرجها الذي كان يتسع لعشرين ألفا من النظارة . وتحولت القناة الرومانية التي كانت تنقل الماء العذب إلى رومة على مر الزمن إلى قنطرة نهر جار Gard ولا تزال العقود السفلى لهذه القنطرة قائمة إلى اليوم في صورة آثار ضخمة محطمة في الريف العابس القريب من المدينة تظهر بجلاء ما بينها وبين العقود الصغرى التي فوقها من اختلاف ، وتشهد هذه وتلك بعظمة فنون رومة الهندسية :

وأنشأ قيصر شرق هذه المدينة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط مدينة أراتل Arelate ( آرل الحديثة Arles ) ظلنا منه أنها ستحل محل مساليا Massalia المشاكسة ، فتكون مركزاً لبناء السفن وثغراً تجاريا هاما . وكانت

مساليا (مرسيليا) مدينة قديمة حين ولد قيصر ، وبقيت يونانية بلغتها وثقافتها إلى آخر أيامه . وكانت فنون الزراعة ، وغرس الأشجار ، وزراعة الكروم ، والثقافة اليونانية قد دخلت بلاد غالة من مرفأ هذه الفُرْضة البحرية . وفيها بنوع خاص كانت أوروبا الغربية تستبدل بغلاتها حاصلات بلاد اليونان والرومان ، وكانت إلى هذا من أعظم مراكز الجامعات في الإمبراطورية ، وكان أعظم ما اشتهرت به مدرسة الحقوق . وقد اضمحل شأنها بعد قيصر ولكنها ظلت كما كانت مدينة حرة مستقلة في شئونها عن حاكم الولاية . وكان يليها من جهة الشرق فورم لولياى Forum Lulii ( فريجو Frejus ) ، وأنتبوليس Antipolis ( أنتيب Antibes ) ونيسيا Nicaea ( نيس ) ، ويتألف منها كلها ولاية الألب البحرية الصغيرة . وإذا انتقل المسافر في نهر الرون من أرلات وصل إلى أفنيو Avenio ( أفنيون الحديثة Avignon ) وأروسيو Arausio ( أورانج Orange ) وقد بقي في هذه المدينة الأخيرة قوس عظيم من أيام أغسطس ؛ وفيها أيضاً ملهى روماني ضخم لا تزال تمثل فيه مسرحيات قديمة .

وكانت أكبر ولايات غالة هي غالة اللجدونية ، وسميت كذلك نسبة إلى عاصمتها لجدونم Lugdunum ( ليون الحالية ) . وكانت هذه العاصمة تقع عند ملتقى الرون والساوون وملتقى عدة طرق برية كبرى أنشأها أجربا ، ولذلك أضحت المركز التجاري لإقليم غنى وعاصمة لغالة كلها . وقد استطاعت بفضل ما قام فيها من صناعات الحديد والزجاج والخزف أن تقبل في القرن الأول الميلادي عدداً من السكان يبلغ حوالي مائتي ألف (٤٠) . وكان إلى شمالها بلدة كيبونم Cabillonum ( شالون - على - الساوون Chalon-sur-Saône ) وقبصر دونم Augustodunum ( تور Tours الحالية ) وأغسطلدونم Augustodunum ( أوتون Outun الحالية ) وسناهوم Cenabum ( أورليان الحالية Orleans ) . ولوتيريا Luteria ( باريس الحالية ) . وكتب الإمبراطور يولييان يصف هذه

المدينة الأخيرة فقال : « لقد قضيت الشتاء ( ٣٥٧ - ٣٥٨ ) في لوتيريا  
مدينتنا المحبوبة ، لأن هذا هو الاسم الذى يطلقه الغاليون عن مدينة الباريزيين  
الصغيرة ، وهى جزيرة فى النهر . . . يعصر فيها الخمر الطيب » (١) .

وكانت ولاية بلجيكا التى تشمل أجزاء من فرنسا وسويسرا الحاليتين  
بلاداً لا يكاد أهلها يشتغلون بغير الزراعة ؛ وكان معظم ما فيها من صناعات  
قليلة متصلاً بالقصور الصغيرة ذات الحدائق التى تدل بقاياها الكثيرة على  
أن أصحابها كانوا من الأشراف الذين يعيشون معيشة الدعة والترف . وفى هذه  
الولاية أنشأ أغسطس المدائن المعروفة الآن بأسماء سواسون Soissons ، وسان  
كنتن St Quentin ، وسنلى Senlis ، وپوقيه ، وتريف Treves . وازدهرت  
آخر هذه المدن ، وكانت تسمى أغسطس ترفرورم Augusta Trevirorum  
لأنها كانت مركز قيادة الجيش المدافع عن الرين ؛ وأصبحت فى  
أيام دقلديانوس عاصمة غالبية بدل مدينة ليون ، وصارت فى القرن الخامس  
أكبر مدينة فى شمال جبال الألب ، ولا تزال حتى الآن غنية بآثارها الرومانية  
القديمة - فلا تزال الهورتا نجرا Porta Nigra محتفظة بأسوارها الرومانية ؛  
ولا تزال فيها حمامات سانت بربارا ، وفى إيجل Igel القرية منها مقبرة أسرة  
سكنديني ، وفى نوماجين Neumagen المجاورة لها النقوش الفجة التى كانت  
على كتل الحصن الحجرية .

وبدلت الحياة حول هذه المدن ظاهرها تبديلاً بطيئاً وجددت عناصرها  
فى عناد شديد فاحتفظ الغاليون بخلقهم ، وسراويلهم القصيرة ، وظلوا  
ثلاثة قرون محتفظين بلغتهم ولكن اللغة اللاتينية غلبت على أمرهم فى القرن  
السادس . وكان أكبر السبب فى هذه الغلبة استخدامهما فى الكنيسة  
الرومانية ، ولكنها كانت وقتئذ قد شذبت ورخمت حتى صارت  
فرنسية . ونالت رومة أعظم فوزها فى غالبية بنقل الحضارة الرومانية  
إليها . ويرى بعض كبار المؤرخين الفرنسيين أمثال جوليان وفلك برنتانو

Funck-Brentano<sup>(٤٣)</sup> أن فرنسا كانت تكون خيراً مما هي لو لم تفتحها رومة ، ولكن مؤرخا آخر أعظم من هذين المؤرخين يعتقد أنه لو لم تفتح رومة غالة لفتحها ألمانيا حتماً ، وأنه لو لم ينتصر قيصر في تلك البلاد. كما يقول Mommsen :

« لحدثت هجرة الشعوب قبل حدوثها بأربعمائة عام ، وفي وقت لم تكن الحضارة الإيطالية قد تأقلمت في غالة أو على ضفاف الدانوب ، أو في أفريقية وأسبانيا . وبفضل ما كان للقائد والسياسي الروماني العظيم من بصيرة نافذة أدرك بها أن القبائل الألمانية هي العدو المنافس للعالم الروماني - اليوناني ، وبفضل قوته وشدة بأسه التي استطاع بها أن يضع للدولة نظامها الجديد نظام الدفاع الهجومي بجميع تفاصيله ودقائقه ، ويعلم الناس أن يحصنوا حدود الإمبراطورية بالأنتهار والأسوار الاصطناعية . . . بفضل هذا كله كسب للثقافة اليونانية - الرومانية الفترة التي لم يكن منها بد لتمدين الغرب »<sup>(٤٤)</sup> .

لقد كان نهر الرين هو الحد الفاصل بين الحضارة الرومانية - اليونانية وبين الحضارة البدائية ؛ فأما غالة فلم يكن في وسعها أن تدافع عن هذا الحد ، وأما رومة فقد دافعت عنه ، وكان دفاعها هذا هو الذي حدد مجرى تاريخ أوربا إلى يومنا هذا .

## الفصل الخامس

### بريطانيا

عبر البحر من غالة حوالى عام ١٢٠٠ ق . م . فرع من قبائل الكلث واستقر في إنجلترا . وقد وجدوا في تلك البلاد خليطا من شعب أسود الشعر لعله أيبيرى ، وشعب أشقر الشعر اسكندناوى . وغلب الكلث هؤلاء الأهلين على أمرهم ، وتزوجوا منهم ، وانتشروا في إنجلترا وويلز . وحوالى عام ١٠٠٠ ق . م ( ونغفل تلك القرون الأحد عشر لأن أنانيتنا تحملنا على اختصار هذه الأحقاب المليئة بالحوادث وتمحو الأجيال الجلييلة الشأن من الذاكرة المزدحمة لكى تقربنا من عصرنا الحديث ) أقبل فرع آخر من الكلث من داخل القارة وطزد بنى عمومته من جنوبي بريطانيا وشرقيها . ولما جاءها قيصر وجد سكان الجزيرة يتألقون من عدة قبائل مستقلة لكل منها ملك يريد أن يوسع مملكته الصغيرة ، وأطلق على السكان كلهم اسم البريطانى Britanni نسبة إلى قبيلة غالية تسمى بهذا الاسم كانت تسكن جنوبي القناة الإنجليزية مباشرة ، ظنا منه أن هذه القبيلة نفسها تسكن كلا الشاطئين .

وكانت بريطانيا الكلثية شبيهة كل الشبه بغالة الكلثية في عاداتها ولغتها ودينها ، ولكنها كانت متأخرة عنها في حضارتها . وقد انتقلت من العصر البرنزى إلى العصر الحديدي قبل مولد المسيح بنحو ستة قرون أن بعد انتقال غالة إلى هذا العصر الأخير بثلاثة قرون . ولما عبر بيثياس Pytheas ، المرتاد الماسليوتى Massiliot المحيط الأطلنطى إلى إنجلترا حوالى عام ٣٥٠ ق . م وجد بلدة كنتياى Cantii في مقاطعة كنت Kent غنية بزراعتها وتجارتها ، فقد كانت تربتها حصبية بفضل الأمطار

الجزيرة ، وكانت أرضها تحتوي على خامات غنية بالنحاس ، والحديد ،  
والقصدير ، والرصاص . وكانت صناعاتها المنزلية قبيل عهد قيصر تكفي  
لإيجاد تجارة ناشطة بين القبائل التي تسكنها ومع القبائل الأوربية ، وضربت  
فيها نقود من البرنز والذهب<sup>(٤٥)</sup> . وكانت غارات قيصر في واقع الأمر  
غارات استكشافية ، عاد منها ليؤكد إلى رومة أن القبائل التي تسكن تلك  
البلاد عاجزة عن المقاومة المتحدة ، وأن غلاتها تكفي جيشاً غازياً يأتيها في  
الوقت المناسب . وبعد مائة عام من ذلك الوقت ( ٤٣ م ) عبر كلوديوس  
بالقناة ومعه أربعون ألفاً من الجنود كان نظامهم وتسليحهم ، ومهارتهم  
فوق طاقة السكان الأصليين ، فأخضعوا بريطانيا لرومة وأصبحت من ذلك  
الوقت ولاية تابعة لها . وفي عام ٦١ قادت ملكة لإحدى القبائل البريطانية  
تدعى بودكا Boudicca أو بوديسيا Boadicea ثورة شديدة ، وادعت أن  
ضباطاً رومانيين قد اعتدوا على عفاف ابنتها ، ونهبوا مملكتها ، وباعوا  
كثيراً من رجالها الأحرار في سوق الرقيق . وبينما كان الحاكم الروماني  
بولينس مشغولاً في الاستيلاء على جزيرة مان Man هزم جيش بودكا الفيلىق  
الوحيد الذي وقف في وجهه ، وزحف على لندنيوم Londinium ، وكانت  
في ذلك الوقت - على حد قول تاستس - « أهم مسكن للتجار ، كما  
كانت سوقاً كبرى للتجارة »<sup>(٤٦)</sup> . وقتل كل روماني في هذه المدينة أو في  
فريولامينيوم Verulamium ( سانت أولينز St. Aibans ) ، وذبح  
سبعون ألف روماني هم وحلفاؤهم قبل أن يلتقي بولينس وفيالقه بالثوار .  
وحاربت بودكا وابنتها في عربة حربية بشجاعة نادرة في أثناء هزيمتها ، ثم  
تجرعت السم ، وضربت بحد السيف رؤوس ثمانين ألفاً من البريطانيين .

ويحدثنا تاستس عن أجركولا زوج ابنته وحاكم بريطانيا ( ٧٨ - ٥٤ م )  
فيروى كيف نشر الحضارة بين « شعب فظ مشتت ذى نزعة حربية » بإنشاء  
المدارس ، وإذاعة استعمال اللغة اللاتينية ، وتشجيع المدن والأغنياء على تشييد

المعابد ، والباسلقات ، والحمامات العامة ، ثم يقول ذلك المؤرخ السليط :  
« واستحوذت مباحج الرذيلة شيئاً فشيئاً على قلوب البريطانيين ؛ فصارت  
الحمامات ، والحجرات الجميلة ، والمآدب الفخمة ، محببة إليهم ، وأخذ  
البريطانيون الغافلون يسمون الآداب الجديدة باسم فنون الإنسانية المهلدة ؛  
وإن لم تكن في حقيقة أمرها إلا ستاراً جميلاً للاسترقاق » . واستطاع  
أبجركولا بحملات حربية سريعة أن يحمل هذه الفنون والحكم الروماني ، إلى  
ضفاف نهري الكليد Clyde والفورث Forth وأن يهزم جيشاً من  
الاسكتلنديين مؤلفاً من ثلاثين ألفاً ، ولولم يدعه دومتيان ليواصل الزحف .  
وشاد هديران سوراً ( ١٢٢ - ١٢٧ ) طوله سبعون ميلاً في عرض الجزيرة  
يمتد من خليج سلواي Solway Firth إلى مصب التين Tyne ليصد  
الاسكتلنديين الذين كانوا يرتابون في نواياه ؛ وبعد عشرين عاماً من ذلك  
الوقت أقام لوليوس Lollius في شمال هذا السور سوراً آخر طوله  
ثلاثة وثلاثون ميلاً يعرف بسور أنطونينس ويمتد بين مصبي الكليد والفورث .  
وبفضل هذين الحصنين استطاعت رومة أن تأمن على بريطانيا أكثر من قرنين  
من الزمان :

وكان حكم رومة يزداد لئياً ورحمة كلما زاد استقراراً ، فأصبحت المدن تشرف  
عليها مجالس شيوخ وجمعيات وطنية وحكام من أهلها ، وترك الريف كما ترك في  
غالة إلى رؤساء القبائل الخاضعين لإشراف الرومان . ولم تكن الحضارة في بريطانيا  
حضارة مدن كما كانت في إيطاليا ، كما أنها لم تكن غنية غناء حضارة غالة ،  
ولكن المدن البريطانية أخذت وقتئذ أشكالاً جديدة بفضل استنهاض رومة  
وحماتها لها . وكانت أربع من هذه المدن مستعمرات يتمتع أهلها بحق المواطنة .  
الرومانية وهي : كمولودونم Camulodunum ( كلشستر Colchester ) التي  
كانت أولى عواصم بريطانيا الرومانية ومقر مجلس الولاية ؛ ولندم Lindum التي  
يدل اسمها لنكولن الحديث Lincoln على ما كان لها من امتياز قديم ؛ وإبراكم  
Eboracum ( يورك ) وكانت وقتئذ مركزاً حربياً هاماً ؛ وجليقم Glevum ، التي

امتزج في اسمها الحديث جلوسستر Gloucester لفظا جليقم وشستر وثاني اللفظين .  
هو اللفظ الإنجليزي السكسوني المقابل لكلمة مدينة (\*) ؛ ويلوح أن تشستر ،  
وونشستر ، ودورشستر ، وشيشستر ، وليسستر ( لستر ) وسلشستر ، ومنشستر  
قد بدأت كلها في القرنين الأول والثاني من حكم الرومان . وكانت في أول  
الأمر بلدانا صغيرة يسكن كل منها حوالى ستة آلاف نفس ، ولكنها  
كانت تستمتع بشوارع مرصوفة ذات مجار ، وبأسواق عامة ، وباسلقات ،  
وهياكل ، وبيوت أسسها من الحجارة وأسقفها مغطاة بالقراميد ، وكان  
في فركونيوم Virconium ( ركستر الحالية Wroxeter ) باسلفا تتسع لستة  
آلاف شخص ، وحمامات تتسع لاستحمام مئات من الأشخاص في وقت  
واحد . وكان في أكواسالس Aquae Salis ( المياه الملحة ) ، التي تعرف  
باسم باث Bath عيون حارة أصبحت بفضلها ملاذا طيبا في الزمن القديم  
كما يدل على ذلك ما بقي من أثار حماماتها الحارة إلى اليوم . وعلا شأن  
لندنيوم من الناحيتين الاقتصادية والحربية لحسن موقعها على نهر التاميز  
ولأهمية الطرق المتفرعة منها ، وزاد سكانها حتى بلغوا ستين ألفا ، وسرعان  
الطرق المتفرعة منها ، وزاد سكانها حتى بلغوا ستين ألفا ، وسرعان  
ما أضحت عاصمة بريطانيا بدل كولودوم (٤٩) .

وكانت البيوت في لندن الرومانية من الأجر والمصيص أما في البلدان الصغيرة .  
فكانت من الخشب ، وكان الجو هو الذي يحدد شكلها ، فكان لها سقف هرمي .  
يقبها المطر والثلج ، ونوافذ كثيرة لينفذ منها ما عسى أن يكون من أشعة الشمس ،  
« لأن الشمس » كما يقول استرابون « لم تكن ترى أكبر من ثلاث ساعات  
أو أربع حتى في اليوم الصحو » (٥٠) . أما داخلها فكان على الطراز الروماني :-  
أرضه من الفسيفساء ، وبه حمامات كبيرة ، وجدران قائمة عمودية وتدفة مركزية .

(\*) هافريلد Haverfield (٤٨) ؛ لكن أكثر من هذا قبولا أن اللفظ مشتق من  
كسترم Castrum اللاتينية ومعناها حصن ؛ أو كسترا Castra بمعنى معسكر . وقد خطط معظم  
المدن الرومانية - البريطانية على طراز رقعة الشطرنج كما كانت تخطط المسكوات الرومانية .

« تزيد على ما كان منها في البيوت الإيطالية ) بأنابيب تحمل الهواء الساخن في أرض البيت وجدرانه . وكان الفحم يستخرج من العروق القريبة من سطح الأرض ، ويستخدم في تدفئة البيوت ، وفي الأغراض الصناعية كصهر الرصاص . ويبدو أن مناجم بريطانيا القديمة كانت ملكا للدولة ، ولكنها كانت تؤول للأفراد يستغلونها<sup>(٥١)</sup> . وكان في باث مصنع ( فبريكا Fabrica لصنع الأسلحة الحديدية<sup>(٥٢)</sup> ) ، وأكبر الظن أن صناعات الخبز ، والآجر والقرميد قد ارتقت حتى كانت تصنع في المصانع ، ولكن معظم الصناعات كانت في البيوت ، والخوانيت الصغيرة ، والدوريات الحدائق . وكان في الجزيرة خمسة آلاف ميل من الطرق الرومانية ، وعدد لا يحصى من الطرق المائية تنقل عليها التجارة الداخلية النشطة ، هذا فضلا عن تجارتها الخارجية المتواضعة التي كانت عكس تجارة بريطانيا في هذه الأيام لأنها كانت تصدر المواد الأولية اللازمة للصناعة .

ترى إلى أي عمق نفذت الحضارة الرومانية في حياة بريطانيا وروحها في الأربعة القرون التي سيطرت فيها رومة على الجزيرة ؟ لقد ضارت اللغة اللاتينية لغة السياسة ، والقانون ، والأدب ، والأقلية المتعلمة في البلاد ، لكن اللسان الكلتى بقى سائداً في الريف وبين عمال المدن ، ولا يزال يقاوم حتى الآن في ويلز وفي جزيرة مان . ونشرت المدارس الرومانية القراءة والكتابة في بريطانيا ، وعينت الصورة الرومانية لحروف الهجاء الإنجليزية ، وغمر اللغة الإنجليزية سيل من الكلمات اللاتينية وبنيت هياكل للألهة الرومانية ، ولكن الرجل العادي ظل يمجّد الأرباب والأعياد الكلتية ، وحتى المدن الكبرى نفسها لم تمد رومة فيها جذورا باقية ، وكل ما في الأمر أن الأهليين خضعوا كارهين لحكم استمتعوا في ظله بسلم مثمرة ورخاء لم تستمتع الجزيرة بمثله إلا أيام الانقلاب الصناعي .

## الفصل السادس

### البرابرة

كان ما قرره أغسطس وتيبريوس من عدم السماح بفتح ألمانيا من بير: الحادثات الهامة في تاريخ أوروبا . فلو أن رومة فتحت ألمانيا وصبقتها كما صبغت غالباً بالصيغة الرومانية ، لكان لأوروبا الواقعة في غرب روسيا كلها تقريباً نظام واحد ، ولربما قامت أوروبا الوسطى في هذه الحالة حاجزاً في وجه تلك الجماعات الكبرى التي كان ضغطها على الألمان سبب غزوهم لإيطاليا .

ونحن نسميهم الألمان ، وإن كانوا هم أنفسهم لم ينطقوا بهذا الاسم ، وليس ثمة من يعرف مصدره(\*) ، ولقد كانوا في الأيام القديمة خليطاً من قبائل مستقلة ضاربة في ذلك الجزء من أوروبا المحصور بين نهري الرين والفستيو لا Vistula ؛ وبين الدانوب وبحر الشمال والبحر البلطي . وتبدلت أحوالهم شيئاً فشيئاً في القرنين الواقعين بين حكم أغسطس وحكم أورليوس فانقلوا من حياة الهجرة للصيد والرعى إلى حياة الزراعة والقرى ، ولكنهم كانوا لا يزالون على درجة من البداوة جعلتهم يستنفدون بسرعة خصب الأرض التي يفلحونها ، ثم يرحلون ليفتحوا بحد السيف أرضاً جديدة . ومن أجل هذا كانت الحرب طعام الألمان وشرايه إذا جاز لنا أن نصدق قول تاستس :

« ليس شعار الألماني هو أن يزرع الأرض وينتظر حتى يجني المحصول في موسمه ، بل إنك ليسهل عليك أن تقنعه بأن يهاجم عدوه ، ويتلقى في جسمه الجراح الشريفة في ميدان القتال . ويرى الألماني أن كسبك بعرق الجبين ما تستطيع

---

(\*) كان الرومان يستخدمون كلمة جرمانس Germanus الوصفية ( المشتقة من German بمعنى النسل ) ويمنون بها « أبناء نفس الأبوين » . ولعلمهم حين أطلقوها على الألمان كانوا يفكرون في نظام القبائل التيوتونية القائم على صلة القبائل .

أن تشتريه بدمك هو شعار العاجزين الخاملين وأنه لا يابق قط بالجندي» (٥٣)  
ولقد تحدث المؤرخ الروماني عن صفات الألمان الحربية وعن حماسة  
النساء وهن يخرضن الرجال على القتال ، ويحاربن إلى جنبهم في كثير من  
الأحيان . وكان وهو يصفهنم يتحسر على تدهور شعبه بفعل الترف والسلم ،  
ويغالى في هذا الوصف مغالاة الواعظ والمعلم الأخلاقى . ولقد كان الفرار  
من العدو يسربل من يرتكبه بعار لا يحصى مدى الحياة ، ويؤدى في كثير من  
الأحيان إلى الانتحار . وقد وصف استرابون الألمان بأنهم « أشد بأساً  
وأطول قامة من الغاليين » (٥٤) . وكان سنكا قد قرأ تاستس فاستنتج من هذا  
نتائج منكرة بأسوأ التندر فقال : « إن الترف والثراء لا يزيدان هذه الأجسام  
القوية العنيفة ، وهذه القوى التى لا تعنى قط باللذة ، إلا قليلا من التنظيم  
والخدق فى الحركات العسكرية - وحسبى هذا . ولن تستطيعوا ( أيها الرومان )  
أن تقفوا فى وجههم إلا إذا عدتم إلى فضائل آباءكم » (٥٥) .

ويروى تاستس أن أولئك الأقوام كانوا فى أيام السلم كسالى بلداء ، يقضى  
الرجال أوقاتهم ( ولعل ذلك بعد الصيد أو موسم الحصاد ) فى ملء بطونهم باللحم  
وشرب أنهار من البعثة ، بينما تقوم النساء والأطفال بالأعمال المنزلية (٥٦) . وكان  
الألماني يشتري زوجته من أبيها هدية من الماشية أو السلاح ، وكان له عليها وعلى  
أبنائهما حق الحياة أو الموت بشرط أن توافق على ذلك جمعية القبيلة . لكن  
النساء رغم هذا كانت لهن عندهم مكانة عالية ؛ وكثيراً ما كان يطلب إليهن أن  
يفصلن فيما يشجر بين رجال القبيلة من منازعات ، وكان من حقهن أن يطلقن  
أزواجهن ، كما كان من حق هؤلاء الأزواج أن يطلقوهن . وكان لبعض زعماء  
القبائل عدة أزواج ، ولكن الأسرة الألمانية العادية لم يكن فيها إلا زوجة واحدة ،  
ويؤكد لنا المؤرخون أنها كانت تراعى مستوى عالياً من الأخلاق الزوجية ،  
« فالزنى قلما كان يسمع به » عندهم ؛ وإذا ارتكبت المرأة عوقبت بقص شعرها .  
والحكم عليها بأن تسير عارية فى الشوارع ، وأن تضرب بالسياط ، وهى تحاول

الفرار . وكان يسمح للزوجة أن تجهض نفسها إذا شاءت (٥٨) ، ولكنها كانت في العادة امرأة ولودا . وكان يندر وجود رجال بلا أبناء ولهذا لم تكن عندهم وصايا ، وكان المفروض أن أملاك الأسرة يرثها الولد عن أبيه جيلا بعد جيل (٥٩) .

وكان السكان يتألفون من أربع طبقات : ( ١ ) طبقة المقيدين وبعضهم عبيد وكثرتهم من أفنان الأرض المرتبطين بها ، والمفروض عليهم أن يؤدوا التزاماتهم للمالك من غلتها ؛ ( ٢ ) والمحجرين - وهم المستأجرون الذين لا يتمتعون بحقوق سياسة ( ٣ ) والأحرار - وهم الملاك والمحاربون ؛ ( ٤ ) والأشراف - وهم ملاك الأراضي الذين تتصل أنسابهم بالآلهة ، ولكنهم يقيمون سلطتهم على أساس أملاكهم الموروثة وحرسهم الخاص ( Comites أى الرفاق ، ومنها اشتقت كلمة كونت ) . وكانت الجمعية القبلية تتألف من الأشراف ، ورجال الحرس ، والأحرار ، يأتون إليها مسلحين ، ويختارون الزعيم أو الملك ، ويوافقون على ما يعرض عليهم من اقتراحات بضرب الحراب بعضها ببعض ، أو يرفضونها بزحمة كثرة الحاضرين . وكان بعض أفراد الطبقتين الثانية والثالثة يشتغلون بالصناعات اليدوية والمعدنية التي برع فيها الألمان ؛ أما الطبقة الرابعة فكان منها النبلاء والفرسان ، وهي التي أنشأت نظام الفروسية في ألمانيا الإقطاعية .

ولم يضيف إلا قليل من البناء الثقافي فوق هذا النظام الاجتماعي الساذج . ولم يكبد الدين وقتئذ ينتقل من عبادة الطبيعة إلى عبادة الأرباب المحسدة في صورة الآدميين . ويسمى تاستس آلهتهم : المريخ Mars ، وعطار Mercury ، وهرقل Hercules - والراجع أن الأسماء الحقيقية لهذه الآلهة هي تيو Tiu ( تير Tyr ) ووودن Woden ( أودن Odin ) ، ودونار Donar ( تور ) ؛ ولا تزال أربعة أيام من كل أسبوع تخلد ذكراها هي وفريا Freya إلهة الحب ، على غير علم منا ، وكانت لهم إلهة عذراء ( هرثا Hertha ) ( الأم الأرض ) ، التي حملت من أحد أرباب السماء ؛ كما أن كل حاجات الإنسان وكل ما يخطر بباله كانت تؤديه طائفة

مختلفة من الجنيات ، والعمفاريت الصغار والكبار ، ووجن البحار ، والمردة ، والإقزام . وكانت الضحايا البشرية تقرب إلى وودن ، وربما كانت الحيوانات الألد طعما من الآدميين تقرب إلى غيره من الأرباب ، وكانت الصلوات تقام في الخلاء في الغابات والغياض ، لأن الألمان كانوا يرون أن من السخف حصر روح من أرواح الطبيعة في مسكن تشيده الأيدي البشرية . ولم يكن عندهم طبقة دينية قوية شبيهة بالدرويد Driuds عند الغالين أو البريطانيين ، ولكنهم كان لديهم كهنة وكاهنات ، يرأسون الاحتفالات الدينية ، ويجلسون للفصل في القضايا الجفائية ، ويتنبئون بالمستقبل بدراسة مهبل الجياد البيض وحركاتها . وكان عندهم كما كان في غالة شعراء يتغنون في شعر فح بأقاصيص قبائلهم وتاريخها . وكان منهم أقلية تعرف القراءة والكتابة ، وكيفت الحروف الهجائية اليونانية فجعلت منها العلامات التي تطورت منها الحروف القوطية وهي الحروف الألمانية الحديثة . وكان الفن عندهم بدائيا ، ولكنهم أخرجوا تحفا جميلة من الذهب .

ولما أن سحبت رومة فيالقتها من ألمانيا احتفظت بسيطرتها على نهر الرين من منبعه إلى مصبه ، وقسمت هذا الوادي الفخم ولايتين - ألمانيا العليا وألمانيا السفلى ، وكانت ثانيتهما تشمل هولنדה وأرض الرين الممتدة جنوباً إلى كولوني . وكانت هذه المدينة الجميلة المعروفة عند الرومان باسم كولونيا أجريننس Colonia Agrippinansis قد جعلت ولاية ( ٥٠ م ) تكريماً لأم نيرون التي ولدت فيها ؛ ولم يمض عليها أكثر من خمسين عاماً حتى كانت أغنى المحلات القائمة على نهر الرين . أما ولاية ألمانيا الشمالية فكانت تمتد على نهر الرين نحو الجنوب مخترقة مجننياكم ( Maguntiacum ) ماينس ( Mayence ) ، وأكوا أوريليا ( Aquae Aureliae ) بادن - بادن ( Baden-Baden ) وأرجنترام ( Argentoratum ) ( ستراسبورج Strasbourg ) وأغسطا روركورم ( Augusta Rauricorum ) ( أوغسط Augst ) وتنتهي عند فندونسا ( Vindonissa ) ( فندش Windisch ) . وكان في هذه المدن

جميعها تقريبا ما في غيرها من الهياكل والباسلقات ، والملاهي ، والحمامات ،  
والقنايل العامة . وكانت كثير من الفيالق التي ترسلها رومة لحراسة الرين  
تعيش خارج معسكراتها ، ويتزوج رجالها بفتيات ألمانيات ، ويعيشون  
مواطنين في تلك البلاد بعد أن تنتهي مدة خدمتهم العسكرية . والراجح أن  
بلاد الرين لم تكن في أيام الرومان أقل سكانا أو غنى منها في أى وقت قبل  
القرن التاسع عشر .

ولقد سبق القول إن مهندسى رومة العسكريين قد أنشئوا بين نهري  
الرين والدانوب طريقاً محصنا ، وأقاموا على جانبيه قلاعا تبعد كل منها عن  
الأخرى تسعة أميال ، كما أقاموا عليه سوراً يبلغ طوله ثلثمائة ميل . وأفاد  
هذا الطريق المحصن رومة مائة عام ، ولكنه لم يفدها شيئا حين نقصت نسبة  
المواليد بين الرومان نقصاً كبيراً عما كانت عليه عند الألمان . وكان نهر  
الدانوب الذى يعده الأقدمون أطول أنهار العالم أضعف من نهر الرين حدا  
فاصلا بين الدولة الرومانية والقبائل الألمانية . وكان إلى جنوبه الولايات  
النصف الهمجية ريتيا ، ونوركم ، وبنونيا ، وهى الولايات التى تتكون  
منها البلاد التى كنا نعرفها فى شبابنا باسم دولتى النمسا والمجر والصرى .  
وقد أنشأ الرومان فى موضع أجزبرج Augsburg ( أى بلدة أغسطس )  
الحديثة مستعمرة رومانية هى مستعمرة أغسطس فندلكورم Augusta  
Vindelicorum كانت هى المحطة الرئيسية على الطريق الممتد من إيطاليا فوق جمر  
برنر Brenner إلى نهر الدانوب . وشادوا على النهر نفسه مدينتين حصينتين  
عند فندوبونا Vindobona وهى مدينة فينا الحالية ، وعنداً كونكم Aquincum  
على المرتفعات التى تشرف منها بودا Buda على بست Pest . وقامت مدينة  
سرميوم Sirmium ( متروفيكا Mitroviça ) فى بنونيا الجنوبية الشرقية على  
نهر الساف Save غرب موقع بلغراد الحديثة ، وصارت هذه المدينة فى أيام  
دقلديانوس إحدى عواصم الإمبراطورية الأربع . وقامت بفضل النشاط التجارى

بليونان ، والرومان ، والأهالي الوطنيين في مقاطعة دلماشيا الواقعة جنوبي  
بنونيا ثغور البحر الأدرياتي وهي سالونا Salona ( اسپلاتو Spalato  
الحديثة ) وأبولونيا Appolonia ( بالقرب من فالونا ) ، وديرهكيوم  
Dyrrhachium ( دورزو Durazzo الحديثة ) . وكانت رومة الإمبراطورية  
تجند من هذه الولايات الواقعة جنوب الدانوب أقوى جنودها أجساما  
وأصلهم عودا ، كما كانت تستمد منها في القرن الثالث الأباطرة . الحربين  
الذين صدوا سيل البرابرة حوالي مائتي عام . وكان في شرق بنونيا ولاية  
داشيا ( رومانيا الحالية ) ، وكانت عاصمتها سرمزجتوسا التي لم يعد لها  
الآن وجود . وكان في جنوب هذه الولاية وشرقها ولاية ميثزيا ( وتشمل  
أجزاء من يوغوسلافيا ورومانيا وبلغاريا الحديثة ) ، وكان فيها على الدانوب  
مدينتان كبيرتان هما سنجدنوم ( بلغراد الحديثة ) وترترمس Troesmis  
( إجلتزا Iglitza ) وثلاثة بالقرب من نهر إسكير Isker وهي سردیکا Sardica  
( صوفيا الحالية ) ، وثلاثة بلاد كبرى على البحر الأسود وهي إستروس  
Istrus ، وتومي Tomi ( قسطنجة الحديثة ) وأديسس Odessus ( وارنه  
Varna ) . ولقد كافحت الحضارة اليونانية والجيش الروماني في هذه  
المستقرات النكدة لكي تحافظ على كيائها ضد القوط ، والرومانيين ،  
والهون ، وغيرهم من القبائل المتبربرة التي أنحاث تتكاثر وتتجول في شمال  
النهر العظيم ، ولكن هذا الكفاح لم يجدهما نفعا .

وكان عجز رومة عن تمدن هذه الولايات الواقعة جنوب الدانوب هو الذي  
أدى إلى سقوطها . فلقد كان هذا الكفاح من أشق الواجبات على شعب يعانى  
آلام الشيخوخة ، وكانت حيوية الجنس السائد قد أخذت تضعف في مهاد الراحة  
والعقم بينما كانت القبائل الضاربة في الشمال تتكاثر وتقوى وتزداد جرأة وتهورا .  
فلما أن قدم تراچان المال للرومانيين ليجنحوا للسلم كان ذلك العمل منه بداية  
النهاية ، ولما أن جاء ماركس أورليوس بألاف من الألمان وأسكنهم داخل

الإمبراطورية ، انهارت الحواجز التي كانت تفصل بينهم وبين الرومان ، واستقبل الجنود الألمان في الجيش الروماني بالترحاب ، وارتقوا إلى مناصب القيادة ، وما لبثت الأسر الألمانية أن تضاعف عددها في إيطاليا بينما كانت الأسر الإيطالية آخذة في الانقراض . وهكذا انعكست الآية في هذه الحركة ، فأخذ البرابرة « ييربرون » رومة . بعد أن كانت رومة تصبغهم بضبغتها . لكن عجز رومة عن ضم الشمال لخطيرة التراث الروماني واليوناني القديم ما يقلل من عظمة ضمها الغرب لهذا التراث أو من خطر شأنه . ففي هذا الغرب على الأقل برزت فنون السلم من بين عجاج الحرب ، وكان في وسع الناس أن يستبدلوا بسيوفهم محارث من غير أن تنحل قواهم في نعيم المدن وأحيائها القنرة . ونبت فيما بعد حضارة جديدة في أرض أسبانيا وغالة القوية حين ضعف تيار البرابرة ، وأثمرت بلور قبور الطغيان ثمارها ، وعفا الدهر عن آثامها في البلاد التي جاءت إليها الجحافل العاشمة بقوانين رومة ونقلت إليها شعلة الحضارة اليونانية .